مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 8 العدد 1 / جوان 2022
ص ص 158–169

العلمانية عند الغرب بين جدلية الدين والوضعية المادية

Secularism in the West between the Dialectic of Religion and the Material Positivism

بن عون طيب
جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس (الجزائر)، tayebbenaoun92@gmail.com

الاستلام: 2022/01/25 القبول: 2022/06/26 النشر: 2022/06/30

ملخص:

يرى العلمانيون أن التقويم الحياتي الدنيوي، لا يستقيم إلا بالمبادئ العقلية ،التي تقوم على استقلالية العقل، التي تتأسس على محورين من المبادئ؛ مبادئ ضرورية لضمان استقلالية العقل الإنساني ،ومبادئ أخرى ضرورية لضمان استقلالية الإنسان كفاعل أخلاقي ،وهي كلها مبادئ تتنافى مع النظام اللاعلماني. يهدف البحث إلى حصر المصطلح في حضن أصوله الغربية بعيدا عن التأثر العربي.والكشف عن تحوراته وأهدافه المتطرفة.من منظور وصفي تحليلي من أجل التبيُّن وإحقاق الصورة البانورامية لمختلف الأحداث والمشاهد التاريخية التي رسخت مفاهيم العقل الغربي الدينامكية.

الكلمات المفتاحية: العلمانية ،اللائكية، الإكليروس،الإستقلالية.

Abstract:

Secularists believe that the mundane life evaluation is only up to the rational principles, which are based on the independence of the mind, which is based on two axes of principles; Principles necessary to ensure the independence of the human mind, and other principles necessary to ensure the independence of the human being as a moral agent, all of which are incompatible with the non-secular system. The research aims to limit the term in the bosom of its Western origins away from Arab influence. And to reveal its transformations and extremist goals. From a descriptive analytical perspective in order to clarify and achieve the panoramic picture of the various historical events and scenes that established the dynamic concepts of the Western mind..

Keywords: secularism, laicism, clergy, independence.

1.مقدمة:

يتأسس العقل الإنساني على جينات إبداعية ،أودعها الخالق في هذا الإنسان لتكون ميزان تقويم للمرئيات و السلوكيات ،وهو أي العقل هبة ربانية ميز بها الإنسان عن باقي المخلوقات، حتى يستخلف في الأرض ويستعمرها ،وعلى قدر استمرار هذا المخلوق في هذه الحياة،يستمر انفتاح عقله وتأمله في الموجودات الدالة على الخالق،بل تأمله في ذاته وفي حقيقة وجوده.

لكن هذا الانفتاح مافتئ يتفتق عن الدلائل ويشوهها ظنا منه على أنه قادر على مقاليد الأمور والتحكم في هذه المعمورة.فقد منح العقل هذا الإنسان مزايا قوية جعلته يفكر ويلاحظ ، ويستنتج ويسطر ويدبر ويؤول مآله كيف ما

شاء،لاغيا بذلك أي وصاية عليه ومتغافلا عن حقيقة قوية وهي أن ما يسعى إليه هو منحة من الله ليبلوه .فهو حر ومختار ولذلك خُلق.

فخطيئته من اختياره وتوبته من اختياره،فهو صانع مصيره .لكن أن يفسق عن هذين المصيرين ويدعي أن لا حياة إلا الحياة الدنيا، فهذا إشكال كبير لأن كل الاستدلالات والاستنباطات والاستقراءات تدل على حتمية كائنة لا مفر منها.لكن تجاهل وتغافل هذا المخلوق لها غير منطقي .فما هي الأسباب الداعية إلى هذا الادعاء؟وهل العقل آلة إثبات أو نفي للحقيقة أم هو صانعها؟.

بين الإثبات والنفي والصنع، مسار زمني ومعرفي طويل يتجدد بتجدد الفكر الذي يسير ضمن حركية دءوبة غير متوقفة،فخزان العقل على قدر صغره كعضو في الإنسان إلا أنه مصدر التجديد والبناء والصناعة .ولعل العلوم المعرفية المختلفة ولاسيما الجانبين الفلسفي والعقلي، وهما الأكثر حضورا كونهما مجالين للتصور والطرح والنقاش،ومن ثمّ وجد الإنسان الغربي- خاصة - نفسه موضع جدل بينهما.لكنه لم يستطع أن يُغفل الفضاء الذي يعيش فيه، والذي من ضمنه الجانب الديني الذي كان سببا في اختيار مسار معرفي مضاد له ،وكان رائد هذا المسار العقل الفلسفي الذي أخذ دورا منافيا للتوجه الديني وما تعلق بالميتافيزيقيا الغربية.

يهدف البحث إلى حصر المصطلح في حضن أصوله الغربية بعيدا عن التأثر العربي.والكشف عن تحوراته وأهدافه المتطرفة.من منظور وصفي تحليلي من أجل التبيُّن وإحقاق الصورة البانورامية لمختلف الأحداث والمشاهد التاريخية التي رسخت مفاهيم العقل الغربي الدينامكية .

2. في مفهوم العلمانية

يشيع بين الكثير من غير أصحاب التخصص – عن مُشكل مصطلح علماني- أهو من العلم أم من العالم الدنيا ،والحقيقة أن اللفظ علمانية ليس له أي صلة بالعلم ،وعليه فهو يحتاج إلى ضبط من حيث الشكل حتى يتسنى معرفة معناه.فالعلمانية في ترجمتها يقصد بها اللادنية أو الدنيوية ،لأن الذين ترجموا اللفظ حسب أحمد فريد" لم يفهموا ألا ما فهمه الصليبيون من كلمة الدين والعلم ،فهذان اللفظان متعاديان متضادان في المفهوم الغربي، و لا علاقة لأحدهما بالآخر ولا مجال للعقل في أمور الدين"[1].

وبخصوص اللفظ فبين العلمانية (بفتح العين) والعلمانية (بكسر العين)،ينسب اللفظ الأول إلى العالم /الدنيا،وأما الثاني فهو ما ينهل من العلم ،أي ما ينهل من المعارف العلمية كما هي مجسدة في العلوم المختلفة.وعلى هذا يقول عادل ظاهر " ..إن العلمانية بهذا المعنى هي إذن موقف ابستمولوجي إلى الحد الذي تكون ضمنه موقفا من طبيعة المعرفة العلمية (معرفة الغايات و الوسائل وعلاقاتها بالمعرفة الدينية. غير أن العَلَماني (بفتح العين واللام) ليس بالضرورة علمانيا (بكسر العين)."[2] وهكذا فكل عِلماني هو عَلَماني وليس العكس صحيحا.بحيث أن اللفظ الثاني يعم كل الناس في هذه الدنيا/العالم، أما اللفظ الأول فهو خاص، وقد ورد في التعريفات للجرجاني " العالم لغة عبارة عما يُعلم به الشيء،

[1]- أحمد فريد العلمانية ،النبتة الخبيثة، 2012م ص 05

[2]- عادل ظاهر الأسس الفلسفية للعلمانية1998، ص 38

واصطلاحا عبارة عن كل ما سوى الله من الموجودات ،لأنه يُعلم به من حيث أسماؤه وصفاته"[3] كما ورد في قواميس العربية " العالم الخلق والجمع العوالم ،وليس هناك في المصطلح فرق بين العالم والدنيا ،إلا أن العالم اسم والدنيا صفة ،ويأتي العالم في العربية أيضا –أهل كل زمان-"[4]

ولا يختلف التعريفان من حيث المعنى على ما جاء في المفاهيم الغربية ،حيث تتساوق الشروحات نحو معنى غير مختلف ،وقد أورد هذا عبد الوهاب المسيري حيث قال أن كلمة علمانية ترجمة للفظ سكيولارزم الإنجليزية ،وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية سكولوم saeculum وهي ذات بعدين؛بعد زمني ويقصد بها العصرaeon وبعد مكاني mondos/comos [5].وللعلمانية صورتان :ص/1 صورة متطرفة وهي التي لا تكتفي بعزل الدين عن الدنيا،بل تحارب الدين جملة،فتنكر وجود الله وتحارب الأديان وتكفر بالغيب.ص/2 صورة معتدلة :وهي التي تكتفي بعزل الدين عن الدنيا ،دون أن تنكر وجود الله أو تحارب الدين،بل إنها تسمح بإقامة بعض الشعائر والعبادات ،بشرط أن تقتصر علاقة العبد بربه دون أن يكون للدين علاقة بشؤون الحياة.[6]

لعل بين الصورتين شكلان متقاربان ومتباعدان في الوقت ذاته؛فتقاربهما يتمثل في إبعاد الدين إبعادا كاملا عن شؤون الحياة ومجالاتها المختلفة ،أما تباعدهما فيكمن في كون إحداهما مادية ملحدة ،وأما الأخرى فهي مؤمنة تسمح بوجود علاقة بين العبد وربه في إطار الحرية التي يكفلها هذا الجانب من العلمانية.

3. بين العلمانية واللائكية

يعد هذان اللفظان وجهان لعملة واحدة ،فهما يكرسان إقصاء كل ما هو ديني عن مجال الحياة ،وأن الوضعية المادية التي أعملت الفكر وأقرّت النزعة الإلحادية،هي من وضعت شعارات تأسيس منظومة قوانين ومبادئ إصلاحية، تمس كل من التعليم والتربية وفق المبادئ اللائكية. ويعتبر هذا المصطلح-اللائكية- من الألفاظ الأكثر شيوعا واستعمالا ،وهو دو خصوصية فرنسية،حيث " ظهر هذا المصطلح لأول مرة في القاموس البيداغوجي الصادر ما بين 1882م/1887م تحت إشراف فاردينان بويسون Ferdinan Buisson..واستخدم بدءا للإحالة على عملية إصلاح التعليم التي قادها الجمهوريون في إطار سعيهم إلى تحويله من سلطة الكنائس إلى سلطة الدولة الجمهورية ... ثم ازداد شيوعه أكثر في مطلع القرن العشرين وتحديدا في أجواء الفصل بين الدولة والكنيسة الذي تمّ إعلانه رسميا سنة 1905م."[7] إذا فكلا الاتجاهين يدفعان بغلبة الجانب الدنيوي على الجانب الديني، أي بغلبة قيم هذا العالم على حساب قيم العالم الآخر ، ولعل مبادئ اللائكية التي اختصرت في الحرية والإخاء والمساواة ،تجسد

[3]- السيد شريف الجرجاني ،معجم التعريفات تح محمد صديق المنشاوي،دار الفضيلة للنشروالتوزيع،القاهرة 2004م ص 122

[4]-رشيد حنون ،رسالة في العلمانية والخلافة، 2011م ص18

[5] - ينظر عبد الوهاب المسيري ،العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة،مج1 /2002 ص52

[6] -أحمد فريد ،العلمانية الخبيثة ص 12/11

[7] - رفيق عبد السلام ،في العلمانية والدين والديمقراطية،المفاهيم والسياقات . 2008م ص21

وتختصر مجموعة من المبادئ التي نادت بها العلمانية – والتي سيُفرد لها عنوان فرعي خاص .

فالحرية مقصود بها الإباحية وتحطيم القيود الأخلاقية،وحرية المعتقد هي إقرار بالوثنية التي يحابيها الإنسان ويحترمها ولا تلزمه بأي شيء.أما الإخاء والمساواة فهما أقرب إلى الإنسانية ،وتجمع بينهم مجموع الخصائص النفسية والذهنية والاجتماعية بغض النظر عن العرق والجنس والدين.ويلتقي لفظ علماني مع لفظ لاييك Laique بمعنى " خاص بجمهور المؤمنين تمييزا لهم عن الكهنوت،وكلمة ليسيزيزم Laicisism بمعنى النظام العلماني ،أي النظام السياسي المتميز بإقصاء النفوذ الكهنوتي عن الدولة، وليسيزاسيونLaicization معناها نقل كثير من وظائف رجال الدين والكهنوت، كالتعليم والقضاء والخدمات الاجتماعية إلى خبراء، يتم تدريبهم تدريبا زمنيا ،لا علاقة له بالعقائد الدينية،التي تستند إلى الإيمان بماوراء الطبيعة بحيث تصبح مهمة رجال الدين مقصودة على الأعمال الدينية"[8]

يُظهر هذا اللقاء بين اللفظين أن هناك علمانية/ لائكية مؤمنة ،وهذا ما أُشير إليه في المفهوم حول المصطلحين، بحيث يسمح من باب حرية المعتقد أن يُعطى جانب من الحرية لهؤلاء الرهبان/الكنسيون لمزاولة طقوسهم في معزل عن متعلقات الحياة.وهذا ما يطلق عليه بالعلمانية المؤمنة ،التي تؤمن بوجود خالق لكنه في غنى عن خلقه. لقد لعب الفساد الإكليروسي/الكهنوتي دورا كبيرا في تزييف مبادئ الكتب السماوية وتحريفها ،وأدى ذلك إلى نشوء نزعة كره شديدة من الشعوب، نتيجة ما لاقوه من التسلط والإهانة والكبت ومحاربة الاجتهاد العلمي وقمع الحريات، ما جعل فولتير (فرانسوا ماري آروويه) Voltaire يقول ساخرا عن علم الكنيسة " من الواضح أن الإله لم يكن قويا في الجغرافيا "[9] في حين رأى البعض أن البشرية أصبحت مع تولي العقل راشدة ،وبإمكانها أن تغير الأحكام طبقا لتغيير الأحوال ،وأن عهد الوصاية السماوية قد ولى وانتهى.في حين هناك من يرى أن عبارة العلمانية Secularism (غير ديني/مدني) المستقاة من الكلمة اليونانية Saeculum التي تعني لغويا الجيل من الناس،فهي تشير إلى العالم الزمني في تمييزه عن العالم الروحي. وقد استعملت في البلدان ذات التوجه البروتستانتية عموما ،أما في البلدان الكاثوليكية فقد استخدمت عبارة اللائكية Laicite في تمييز عامة الناس عن الإكليروس " الذين هم مجموعة رجال الدين في المسيحية، ممن يمثلون مراتب في الكهنوت المسيحي بصفتهم ميراث الله وعارفوا سرّ الكهنوت، وقد أصبحوا يشكلون طبقة مهمة في سياق التراتبية الاجتماعية للطبقات في أوروبا خلال القرون الوسطى"[10]

4. بداية العلمانية الغربية.

1/4 الوصاية الرهبانية:

تمثل هذه الوصاية حقبة من الزمن الغربي،عاش فيه الإنسان الأوربي حياة ضنكه في ظل التسلط الرهباني/ الإكليروسي ولعل فترة

[8]- عادل ظاهر الأسس الفلسفية للعلمانية ص 38/37

[9]- رفيق عبد السلام ص 24

[10]- ينظر بتصرف عزيز العظمة ،العلمانية من منظور مختلف (الديني والدنيا في منظار التاريخ) 1996م ص 05

القرون الوسطى هي أفضل تحديد لهذه الحقبة ، أين ظهرت الكنيسة وتسلطت على مجالات الحياة وتصدت لكل المحاولات الاجتهادية العقلية. فقد مثلت السلطان الآمر والناهي المدبر للشؤون الحياتية في مختلف المجلات، بحيث منع الإنسان من إعمال العقل ،ولا حتى بإدلاء أفكاره حول مآل حياته وعيشه،إلا في حضن هذه الوصاية.

وأمام هذا النفوذ الطاغي تحت عباءة الكهنوت ،وباسم الإله تصاعدت الأصوات لما لا يتدخل الإله ليوقف ممثليه وأدعيائه أمام هذا الفساد والسطوة؟ وقد رُجح خياران لهذا الطرح وهما كالتالي؛ إما هو موجود وأباح لهم هذه السلوكات باسمه ولم يتدخل ،وبالتالي لا يستحق العبودية .وإما أنه غير موجود وبالتالي يتوجب التصرف حيال هذه السلطة الكهنوتية المتسلطة، وإزاحتها مما هو دنيوي خاص بحرية كل إنسان.ولعل الراهب أوغسطين قد جسد هذين الخيارين عندما قال أن الروم الوثنيين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد ،ويهزؤون بهم في دور التمثيل،ليس هذا فحسب بل إن أبيقور (ق/4) قبل الميلاد قد أعلن دعوة علمانية صريحة فقال" إن الآلهة لا يشغلون أنفسهم بأمور بني البشر، نعم إنهم موجودون لأنهم يظهرون من آن لآخر للأشخاص، بيد أن مسائل العالم الأرضي لا تعنيهم، وما من علامة تدل على أنهم يعنون بعقاب الآثم،وإثابة الصالح،أيكمن اعتقاد تدخلهم هذا مع ما نراه في العالم"[11] .

إن الاستفهام الإنكاري الصريح يفضي بأن الأمر أقرب إلى الوثن وما من إله،أو هو إله موجود ولكنه غافل عن خلقه ، ولعل من هنا ظهرت العلمانية المؤمنة ،والتي تؤمن بوجود خالق وهم (المسيح الكاثوليك والبروتستانت) ،وأخرى ملحدة لا تؤمن بوجود خالق ،وهم الدهريون. وأبرزهم فلاسفة النفعية والمادية المحضة ومن تبعهم.لقد أساءت السلطة الكهنوتية إلى العلم والعلماء، وألغت كل اجتهاد علمي لا يخضع لمستوى أفكارها الدعائية ،على أنها سلطة مطلقة عارفة بكل أسرار الكون ،وقد أثبتت سلطتها بقرارات سيادية ثابتة في كتبها المقدسة ،وأن التمثيل الإلهي كفيل بأن يوعز له هذه المعارف ،وأن لا تصورات خارج هذا الفضاء الديني /الإكلوروسي. قال سيد قطب " أصدر البابا نيقولا الأول بيانا قال فيه :أن ابن الله أنشأ الكنيسة بأن جعل الرسول بطرس أول رئيس لها ،وأن أساقفة روما قد ورثوا سلطات بطرس في مسلسل مستمر،ولذلك فإن البابا ممثل الله على ظهر الأرض يجب أن يكون له السيادة والسلطان الأعظم على جميع المسيحيين،حكاما كانوا أم محمومين"[12] .

وقد لعبت هذه السيادة والسلطان الأعظم دورا في منع كل محاولات الخروج عنها بوسائل ردعية مفزعة ،وحاربت كل النظريات والاجتهادات العلمية ،فكان مصير العلماء قاسيا .من " كوبرنيك الذي أحرق و ذُر رماده في الهواء ليكون عبرة لغيره ،لأنه قال بكروية الأرض ثم خلفه جردانو برونو الذي بعث النظرية بعده ،والذي

[11]- محمد شهدي ،سقوط العلمانية ونهاية إسرائيل (د ت) دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة مصر ص 17

[12]- المرجع نفسه ص 20/19

كتب كتابه حول الأجرام السماوية ،لكنه توفي قبل أن تتمكن منه الكنيسة .ثم جاليليو الذي توصل إلى صنع تليسكوب وأثبت ما قاله أسلافه،لكنه وُوجه بشدة ومخافة أن يحرق اعترف و اعتذر قائلا...أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض."[13] إن الإقرار العلمي بأنه قول إلحادي خاطئ ،وهو المصير القاسي الذي لقيه كل مجتهد علمي أبقى المسائل الوجودية على ثباتها كما زعمت الكنيسة ،فكل شيء ثابت بما فيه المسلمات التي تخص العادات والتقاليد والدين،أو فيما يخص ثبات الأرض كل هذا في إطار السلطان الكنسي.

2/4 <u>الشك وبداية الإيمان</u>

يرى جمهور النقاد وأعلام الفكر الغربي ،أن الحاضر الغربي المادي الذي يشوبه نوع من العلاقات الانفرادية،لبعض الشرائح الاجتماعية المؤمنة بوجود خالق يلوذون به،هو مجرد امتداد للحضارة الإغريقية و اليونانية ،ولعل الوقوف على هاتين الحضارتين يبين الجانب المتناقض بين الدين والعقلانية."وكثير منهم يرى أن إلياذة هوميروس تجسد الموروث الغربي الذي يظهر التقارب بين الآلهة والبشر، من حيث تحديد المصير والمآل بواسطة التحالفات أو المصاهرات ،وكلها مبنية على علاقات الخيانة والحب الوهمي والنفعي أكثر منه حقيقي،بل يتفوق العقل البشري في كثير من الأحيان على هذه الوثنية الخرافية التي هي من نسيج هذا العقل نفسه.[14]

لقد أودى التمحيص في حقيقة هذه العلاقات بل وحتى في نسيج هذه السرديات الوثنية، إلى إعمال العقل فيها ثم التقرير ببطلانها،وضرورة التوجه نحو العقلانية في رسم التوجهات الفكرية نحو مآل وضعي، يتيح حياة ماتعة بعيدا عن الإيمان بالخرافات والأساطير والقوى الغيبية." و في هذا الجو الديني الخرافي،لم يكن من البديهي أن يذهب الفلاسفة الأوائل الذين وضعوا أسس التفكير الغربي،مثل أرسطو إلا أن يعتمدوا على عقولهم وخبراتهم الواقعية،في العمل على إدراك حقائق الوجود ،أو إدراك حقيقة الدين نفسه...وتحديد صفات الإله."[15] والتوجه نفسه عند الإغريق الذين رأوا أن الطريقة الوحيدة،هي اعتماد العقل في التفكير الفلسفي وتحرير الوعي البشري من أي معرفة دينية ، ومن ثم استبعاد أي وجود للوحي ،يتدخل فيه الخالق. وأمام هذه الخرافات الدينية، تقرر أنه من المستحيل قبول وجود إله يرشد الخلق في حياتهم ،وله مقاليد السموات والأرض.

كما كان للأنواريين أيضا دور كبير في ترسيخ فكرة العقل/الإله ،البديل عن الكهنوتية وعلاقتها بالخالق ،وتأكد مصير الإنسان بفضل الحركية العقلية والفكرية التي اتسم بها الغرب ،فشهدت ظهور علوم جديدة ومتنوعة حسب تنوع مجالات الحياة وحاجات الإنسان ،لكن مع ذلك بقي البديل /العقل يحتاج إلى سند لتبرير مستوى التطور والإمدادات المعرفية التي يدفع بها .لأن المسلم به هو المصدر و المرجع الممون له.وهنا ظهرت الداروينية وما أحدثته في موازين

[13]- رفيق عبد السلام سقوط العلمانية ونهاية إسرائيل ص 20/19

[14]- بتصرف محمد إبراهيمي مبروك ،مواجهة المواجهة 1994م ص 27

[15]- ينظر المرجع نفسه ص 30

البحث العلمي فأعطت كل المبررات التي يحتاجها هذا الإنسان.كما برهنت على مصدر الإمدادات المعرفية. وماعدا فكرة أصل الإنسان أنه يعود إلى سلالة القردة التي أبعدت وألغيت، فقد كانت باقي البحوث العلمية ونتائجها مبهرة للأمة الغربية ومقنعة إلى حد ما. وكانت للداروينية أثار قوية كبديل عن المسيحية ليعلن عنها كدين جديد بفضل ما قدمته من أفكار جديدة، ولعل من العوامل التي ساعدت على ظهورها، "عاملان خارجيان :

أ/الظروف التاريخية السيئة: ولدت الداروينية في زمن احتدّ فيه الصراع بين العلم والدين، خاصة مع ظهور الثورة الصناعية، التي بدأت في تغيير ملامح الحياة الأوربية وفي طمس ملامح المجتمع الأوربي، بسبب بشاعة النسك الكنسي واستبعاده.إضافة إلى حقيقة الثالوث المقدس أين قتل الأب /الإله ابنه ليخلصه من الخطيئة، وبدأ يدرك هشاشة هذه العقيدة أمام بزوغ قوة العلم.

ب/الاستغلال البشع لأفكار داروين عن طريق الإشهار والإدعاء: فقد اكتشفت قبله من قبل زمرة من العلماء ولكنهم أرجعوا هذا التطور الرهيب للكائنات العضوية إلى قوة مدبرة، وبالتالي أبقوا على ملامح الكهنوت في بحثهم، لكن داروين طرح الأفكار كدين جديد وبديل عن الكنيسة حيث قال "الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق ... وأن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الإله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحث..."[16] . هذه اللاحدود التي رسمها داروين للطبيعة هي منظومة القوانين التي تحكم كل مخلوق، ولاحظوا أن الإنسان هو وليد سلسلة التطورات في الخلية داخل الوسط الآسن، وانتهت في خط سيرها العشوائي إلى صورته الواهية، ولا يوجد من يدعو إلى التفكير في غاية وجود الإنسان ولا حياة بعد فنائه.

لقد تلقف الملحدون هذه الأفكار ووضعوا لها دعاية واسعة ، وأفسحوا المجال للعلوم الكونية والإحيائية والجيولوجية وغيرها.وساهموا في تثبيت مقولة الغاية لا تهم الباحث العلمي،كما دفعت العلوم الإنسانية والاجتماعية في تقوية هذا المسار لتكون الحياة متاع ولذة بدون حسيب ولا رقيب، على الرغم من أن الكثير من العلماء كرسوا جهودهم في هذه المجالات،لكن لم تكن لهم الحظوة ،لأنهم أرجعوا سلسلة المنظومات الخلقية التطورية إلى قوة مدبرة ،وحتى مع نفي لويس باستور Louis Pasteur وإبطاله لأسطورة التولد الذاتي.[17]

ومع اختلاف العلوم الاجتماعية والإنسانية ومسار التطور القوي للعلوم الطبيعية والمادية، تكرس مفهوم الإلحاد والحياة المادية .وكل أدلى بدلوه في حقيقة الدين ووجوده وعلاقته بالإنسان، وكل هذه الدلاء أعطت دفعا لتثبيت أسطورة وخرافة الدين ،وأنها متولدة في الإنسان كونه يستأنس بها في وحدته ،ولا يعدو هذا الدين مجرد تأثر وتأثير أو وسيلة لدرأ الخوف والدفاع عن النفس.وهكذا احتوت المادية الملحدة على المجتمعات الغربية أكثر بكثير من المجتمعات المادية المؤمنة.

5. التأسيس العقلي للعلمانية

[16]- ينظر بتصرف سفر عبد الرحمن الحوالي،العلمانية نشأتها وتطورها 1982م ص191

[17]- بتصرف المرجع السابق ص 195

يتأسس الفكر الغربي على مبدأ العقل في ترسيخ كل الفلسفات التي تسطر للوجود الحياتي ،وفق مبادئ منطقية ومجربة نهلت من خبرات متعددة ،واكتسبت في ميدان البحث والتجريب العلمي بحيث لا شيء خارج العقل.حتى في المجال التعبدي فقد تمّ إيجاد نظام توافقي بين الدين والعقل من حيث النفعية/ البراغماتية .ويشمل هذا التوافق السير وفق ما يخطط له العقل دون أن يحدث خللا اجتماعيا.إذ يكون المتفق عليه خارج المحرمات والنواهي و الأوامر ،فلا وجود لآمر/ناهي غيبي وإنما ما تؤسس له لذة البراغماتية والنزعة الدنيوية.تقول الكاتبة الأمريكية مارغريت ماركوس " وبشغف شديد تحول مفكروا عصر النهضة إلى الاستلهام من علوم اليونان والرومان القديمة ،وبإحلال الإيمان بقدرة العقل السري المجرد محل الإيمان بالله."[18]

لقد وجد الفكر الغربي ضالته في الفكر القديم اليوناني والإغريقي،فتوائما وتساوقا في نشدان الفلسفة الوضعية التي بررت للعقل وجوده وتصوراته الخارقة .وتحديه القوي لكل ماهو ديني كنسي ،ولعل الصدمة القوية التي أحدثها الإكليروس التي لم تترك مجالا لإعادة النظر في الحقائق الدينية ،بل كانت فرصة سانحة للنزعة الإلحادية من أجل تمرير كل محطاتها أمام انهزام التيار الديني في ترسيخ مبادئه الحياتية." ويقوم واقع التحدي العلماني على محورين:

1/المحور الأول:وهو محور النخبة العلمانية المثقفة الذي تتفرع توجهاته نحو ماركسية ووضعية وبراغماتية وتحليلية ،وكلها تدور حول فرضية مسبقة وهي اختصار الحقيقة على كل ما هو مادي تجريبي ،ومصادرة ما هو غير دلك كونه خرافات وأضاليل...

المحور الثاني: وهو محور الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي يتحرك في آلية المركبة البراجماتية،التي تنطلق في سعار نحو المصلحة لمنفعة اللذة، المال، التراكم، الأرصدة... ساحقة في سبيل ذلك كل الأشياء وكل المقومات المتعلقة بحقيقة وجود الإنسان..."[19]

ومع هذه الكوكبات من النخب والتيارات المتعددة والمتشابكة في الوقت ذاته ،ومع هذه التوجهات المادية القائمة على ترسيخ المبادئ المادية التي تؤسس للاقتصاد والمال واللذة ،أصبح الوعي الإنساني أكثر ترشيدا نحو العقلنة ،وانتصارا حسب مفاهيمهم بفعل فتوحات العلوم أمام مجاهيل الكون وأسرار الطبيعة والحياة ،فهو انتصار الحتمي والقاهر للدنيوي على حساب الكهانة والخوف من الغيبيات.

وهذا الانفتاح المعقلن هو رديف التسامح والتعايش بدل الانغلاق والتشاحن بسبب الاختلاف الديني والعقدي. وتقترن العلمانية حسب ماكس فيبر العالم الألماني بمظهرين:

المظهر الأول: تفكك المنظور التوحيدي والشمولي للكون وبالتالي تصبح الخيارات الأخلاقية مجرد خيارات فردية.ومع تشظي بنى الوعي وغياب وحدة المرجعية المشتركة تصبح القيم الأخلاقية والتصورات الإدراكية التعدد والتضارب فيما بينها،هكذا يتجه الإنسان الحديث إلى صنع إلهه وشيطانه الخاص،كما يقول فيبر دونما حاجة إلى أية سلطة دينية.

المظهر الثاني: التعدد في مستوى الحقول الثقافية أو القيمة،يقابله تعدد مواز في مستوى

[18]- محمد ابراهيم مبروك مواجهة المواجهة ص 31

[19]- ينظر بتصرف المرجع السابق ص 36

الحقول الاجتماعية ،التي يحصرها فيبر في ثلاثة حقول رئيسة :

ح/1- الحقل المعرفي الإدراكي ،على نحو ما يتجسد أساسا في المؤسسة الجامعية والبحثية

ح/2- النظام الاقتصادي والسياسي ،كما يتجسد أساسا في نظام السوق الرأسمالي وبيروقراطية الدولة الحديثة.

ح/3- الحقل الجمالي والفني ،على نحو ما يبدو في المتاحف العامة والتعبيرات الفنية.[20] فبين هذه الحقول وذانك المحورين ، يعتقد علماء الاجتماع أن هذا التفرع في الحقول والتنوع في التيارات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ،يلمح بالتشتت والتشظي الاجتماعي وإقرار للإباحية ، ودعوة إلى الترويح النفسي باللذة في مقابل الروحانيات ،من أجل إطفاء الظمأ الروحي.وخاصة وأمام الوسائل الحديثة التي هي في جوهرها حديثة وسطوتها الإجرائية تستدعي العلمنة، بما في ذلك من تحول في نمط الحياة والتفكير.

6. مظاهر ومبادئ العلمانية

لقد صار العقل نوعا من الطاقة التي لا يتم إدراكها إلا في حركتها وفي آثارها، فهو مند ارتباطه بفلسفة التنوير وتحديدا بالعلم النيوتني (نسبة إلى نيوتن)،الذي ينطلق من دراسة الوقائع والظواهر الجزئية، كونها معطى يرجى من تحليلها وفهم أسرار قوانينها اكتشاف المظاهر والمبادئ التي تحكمها. فعلى امتداد التأسيس لهذا العقل/الدين الدنيوي الجديد للعلمانية، برزت علوم متنوعة في كل مجالات وتخصصات الحياة. حيث ساهمت في تغيير منظومات ومظاهر الحياة الأروبية، وأقرت قوانين هي بمثابة دستور للعلمانية، وضّعت له النخب على اختلاف مشاربها المادية إذ معظمها يصب في تيار الإلحاد.

ومن ثَّم جعلت العلمانية الإنسان هو المطلق بدل الخالق، من حيث ما أبدعه بعقله وما اكتشفه من قوانين مكنته من السيطرة على كل ما هو موجود،والتغافل عن كل ما هو غيبي.يقول فريدريك نيتشه "أن الإله قد مات وسيظل ميتا ،ونحن الذين قتلناه"[21]. يرى العلمانيون أن التقويم الحياتي الدنيوي لا يستقيم إلا بالمبادئ العقلية التي تقوم على استقلالية العقل، والتي تتأسس على محورين من المبادئ؛ مبادئ ضرورية لضمان استقلالية العقل الإنساني، ومبادئ أخرى ضرورية لضمان استقلالية الإنسان كفاعل أخلاقي، وهي كلها مبادئ تتنافى مع النظام اللاعلماني.

وقد أوجز محمد عمارة في تحليله للسمات التي تحكم المجتمع العلماني، مقارنة مع ما يقابلها في المجتمع الإسلامي، حيث استنتج أن المجتمع العلماني تتميز قيمه بـ:

1/ تتميز قيمه بالنفعية أي أنه يعلي من مقام المصلحة بصدد القيم الأولية للمجتمع.

2/يساند التغيير ويدعو إلى التجديد ويدعمه.

3/لا يهتم بما هو خارق للطبيعة.

4/لا يهتم بالقيم المرتبطة بالنزعة التقليدية وبالاتجاه المحافظ.[22] وكأنه اختصر مجموع المبادئ التي وردت عند العلمانيين، وأقرها قانونهم من حيث استقلالية العقل واستقلالية الإنسان كفاعل أخلاقي.وقد فصّل كل من عادل

[20]- رفيق عبد السلام ص 68

[21]- عمرو شريف ،رحلة عقل ،1999م ص 166

[22]- ينظر بتصرف محمد عمارة ، نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام 1997م ص 19.

ظاهر وعمرو شريف في كتابيهما[23] هذه القيم ،بل ويتفقان حول بعضها كما وردت عند العلمانيين.

1/6. المبادئ الضرورية لاستقلالية العقل:

يتفق كل من الكاتبين على أنه من أهم المبادئ التي تقر استقلالية العقل:

- أن لا تدعي أي فئة من الناس احتكار المعرفة في الشؤون السياسية والاجتماعية، بما في ذلك كل ما تعلق بالحياة الدنيا ،وأنها مسئولة على توجيه الناس وما يريده منا الإله،فالعلماني يغفل النفس والروح ،ولا يُثبت إلا الجانب المادي من الجسد والقوانين التي تحكمه .

- أما على المستوى المعرفي،فلا يجوز إعطاء الأولوية سوى لمعايير العقل،ويشمل هدا الجانبين معا النظري والعملي. فلا سلطة أخيرة سوى العقل، إذ يجب تحريره من سلطان الدين ليكون هو المطلق.

- كما يضع العلماني تجربة الحسي محل المعارف التقليدية و الوجدانية، ويستعيض بالعلم الطبيعي عن الدين والفلسفة،كون هذين الأخيرين يشاركان في روافد ما بعد الطبيعة ويسعيان لشرح ما تجاوز العلم الطبيعي .فالعلمانيون يقفون عند الموجود ويتتبعون أسباب وجوده ونشأته ومآله ،لكنهم يغفلون ما قبل الوجود.

2/6 المبادئ الضرورية لاستقلالية الإنسان كفاعل أخلاقي:

- يستنبط العلماني الأخلاق من الطبيعة الإنسانية،كما يجعل السعادة واللذة هما المعيار وليس الفضائل الروحية والنفسية،فالقيم موضوع للاختبار فلا يحق لأي جماعة أن تفرض قيمها على جماعات أخرى، مثلما لا يحق لأي فرد أن يفرض قيمه على الآخرين، فالقيم لا تقونن ولا تتمأسس.

-كما ينبغي وضع حد فاصل بين العام والخاص ،بحيث على الدولة أن لا تتدخل بقوانينها وتشريعاتها إلا في المجالات التي تضمن تحقيق المنفعة العامة أو تحقيق العدالة أو كلاهما معا.إذ يجب رد القوانين إلى المصالح المادية والخبرة التاريخية،لا إلى الشرائع الدينية خاصة التعليم والموسيقى والفنون والآداب والتربية.

-يعتقد العلمانيون أن الشعور الديني مكتسب لدى الإنسان مثلما اكتسب السلوكيات والأحاسيس الأخرى ،فكلما أدرك الإنسان جهله وعجزه مال إلى البحث عن قوة غيبية يتشبث بها ،عله يجد له دعما منها وأمان ،فولد ذلك المكتسب مفهوم الإلوهية ومفهوم الدين.

تجدر الإشارة إلى أن العلمانيين في توجهاتهم العقلية والمعيارية ،وفي تحديدهم لمسارات التجديد ،وبناء القيم والثقافات والصناعات ،يسعون دائما إلى التكيف مع المبادئ التي تخدم محاورهم الفكرية والروحانية ،من ذلك فشل نبوءتهم القائلة بالزمن الخالي من الدين ولم تتحقق،فشجعوا على ظهور حركات دينية جديدة وثنية وهمية، يعمد فيها أصحاب هذا التدين الجديد إلى عدم التشدد في اختيار تقاليد دينية من جميع أنحاء العالم ،فينتقون ما يناسب تجربتهم الشخصية الذاتية ويريحهم ،وهو الاتجاه ذاته الذي أقرته ما بعد الحداثة من حيث اهتمامها بالهامش والمقصي والشاذ " هذه الأصولية الدينية الحديثة على درجة عالية من

[23]- ينظر ظاهر عادل ،الأسس لفلسفي للعلمانية ص365.وعمرو شريف ،رحلة عقل ص 168/165

التنظيم ،مستقرة من حيث محتواها الديني وقادرة على توفير معرفة موضوعية ومتوفرة دائما للسعي نحو الخلاص " [24].

ربما تكون هذه من أهم المبادئ التي أسست لها العلمانية كدين دنيوي بديل عن الدين السماوي ،وسطرت أهدافها الحسّوية والمادية من أجل رفاهية الحياة .وهذا هو الشائع والمعمول به لدى الإنسان الغربي ،على الرغم من معارضة الكثير من النخب الغربية لبعض هذه المبادئ وللتوجه العلماني المتطرف الإلحادي، الذي صار يتقلد تسيير الأمور كيفما شاء هواه وعقله.

7. خاتمة:

يعد موضوع العلمانية من المواضيع الشائكة التي مازالت تستقطب الباحثين ،فهي ذات أبعاد فلسفية نافذة ،إن في مجال الدنيوي النفعي ،أو في مجال الروحي والنفسي البديل عن الدين والخالق وأصل الوجود.وقد كان أولى حلقات البروز لهذا المفهوم هو التصادم الإنساني (الإنسان مع أخيه الإنسان)، وكان نواة هذا التصادم هو العقل وحقيقة الخيار والتوجه اللذين تجليا في الحرية ،والآلية المؤسسة للتمحيص من أجل المآل.ولعل من النقاط المستخلصة لهذا البحث حول العلمانية هي:

-أن العلمانية لفظ مقابل للادينية وهي دين دنيوي جديد ويتوافق مع اللائكية.

-أن العلمانية أقرت المادية والمعرفة والوضعية لتأسيس المعايير التي يتوجب على الفرد الغربي السير وفقها لتحقيق اللذة والسعادة.

- إقرارها لسلطة العقل والعلم التجريبي على كل ما هو موجود ،في حين تتكفل الفلسفة بالبحث عن ما هو غير موجود في إطار التصور العلماني ما بعد الحداثي.

- إقرارها للديانات الوضعية التي تتساوق مع التوجه العلماني كتجربة ذاتية وحرية اختيار.

- أن التوجه العلماني إلحادي محض ،ولا يسمح إلا بما لا يحدث خلل اجتماعي،وبعيد عن السياسة والتعليم والتربية والفنون.

8. هوامش المقال:

- فريدأحمد العلمانية ،النبتة الخبيثة،2012م دار الجوزي القاهرةط1.

- ظاهر عادل الأسس الفلسفية للعلمانية،1998م دار الساقي /لبنان ط1.

- الجرجاني السيد شريف ،معجم التعريفات تح محمد صديق المنشاوي،1982م دار الفضيلة للنشر والتوزيع،القاهرة .

- حنون رشيد ،رسالة في العلمانية والخلافة ،2011م دار مدارك للنشر لبنان ط1.

- المسيري عبد الوهاب ،العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة،مج 2002/1 م دار الشروق القاهرة ط1.

- عبد السلام رفيق،في العلمانية والدين والديمقراطية،المفاهيم والسياقات .2008م الدار العربية للعلوم ناشرون لبنانط1.

- العظمة عزيز ،العلمانية من منظور مختلف (الديني والدنيا في منظار التاريخ)مجلة كتاب في جريدة عدد 2008/121الصادر عن اليونسكو 1996م

[24]- جتنفرايد كونزلن مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا (شهادة ألمانية) تر/ داليا محمد د ت ص34

- شهدي محمد ،سقوط العلمانية ونهاية إسرائيل (د ت) دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع المنصورة مصر.
- مبروك محمد إبراهيمي ،مواجهة المواجهة ،1994م دار الطباعة الحديثة القاهرة .
- الحوالي سفر عبد الرحمن،العلمانية نشأتها وتطورها ،1982م دار الهجرة ط1.
- شريف عمرو ،رحلة عقل ،2011م مكتبة الشروق الدولية ،مصر الجديدة ط4
- عمارة محمد ،نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام ،1997م دار رشاد القاهرة ط4.
-كونزلن جوتفرايد مأزق المسيحية والعلمانية في أوروبا(شهادة ألمانية) تر/ داليا محمد ،تقديم الدكتور محمد عمارة ،1999م دار النهضة للنشر والتوزيع ،ج مصر العربية.